نشأة التفسير بتونس

الدكتورة : وسيلة بلعيد بن حمدة
مديرة قسم القرآن والحديث بالمعهد الأعلى لأصول الدين

يتناول هذا البحث نشأة التفسير وأهم اتجاهاته في تونس، ويفصل القول في اتجاه التفسير بالمأثور بالتركيز على أول تفسير ألف بالقيروان من قبل يحيى بن سلام البصري القيرواني في نهاية القرن الثاني الهجري.

نشأة التفسير:

من المعلوم أن الفتح الإسلامي فتح ديني أساسه كتاب الله، وسنة خاتم أنبيائه، ولم يكن فتحا عسكريا توسعيا، يراد به السيطرة على الرقاب والأوطان، فقد كان الفاتحون الأوائل؛ وهم صحابة رسول الله، ﷺ، ينشرون الإسلام، ويعملون على تحفيظ القرآن للمسلمين الجدد، وبيان أحكامه ومقاصده؛ روى البخاري عن البراء قوله: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي، ﷺ، مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن»(1)، كما أمر رسول الله ﷺ عمرو بن حزم لما وجهه إلى اليمن بأن «**يعلم الناس القرآن ويفقههم فيه**»(2). والأحاديث كثيرة في الحض على تحفيظ القرآن، وتعظيم شأن من يقوم بذلك، قال ﷺ

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، القاهرة، معهد المخطوطات العربية بالإشتراك مع دار المعارف، 1955. 1/261.

(2) ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة المدني، 1383/1963، 4/1014.

«**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**»(3). وهو الحديث الذي رجح به سفيان الثوري تعليم القرآن على الجهاد(4).

وأوصى الرسول ﷺ بإكرام أهل القرآن وسماهم **(أهل الله وخاصته)** (رواه ابن ماجه وأحمد وغيرهما).

وقد اشترك صحابة كثيرون في فتح إفريقية(5) غير أن ظروف الفتح، وما كان من ارتدادات الأفارقة(6) لم تساعد على استقرار بعض الصحابة للتعليم والتفقيه في الدين... ولذا لم تذكر المصادر شيئا من هذا الجانب التعليمي، الذي كان يقوم به الصحابة في البلاد المفتوحة. فقام بهذه المهمة التعليمية الدينية، التابعون الذين أتوا إلى إفريقية منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري، ومنهم أبو عبد الله بن رباح اللخمي، روى عن عمرو بن العاص وابنه عبد الله وعن أبي هريرة وعائشة وابن عباس، وسكن القيروان وبنى بها دارا ومسجدا وانتفع به أهلها(7). وأبو رشيد حنش بن عبد الله الصنعاني (ت 100/718) الذي روى عن علي وابن عمر وابن عباس، وأخذ عنه جمع من أهل إفريقية منهم عبد الرحمان بن أنعم (ت 161/777) وسكن حنش القيروان، ومات بها(8)، كما سكن القيروان أيضا أبو سعيد كيسان المقبري (ت 100/718) روى عن جماعة من الصحابة منهم: ابن عمر، وأبو هريرة، وروى عنه أهل القيروان(9).

وهكذا فقد دخل إفريقية جماعة من التابعين، وسكنوا القيروان، وعلموا أبناءها الحلال والحرام، وكانت العلوم الدينية في هذه العصور

---

(3) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، وانظر ابن حجر العسقلاني فتح الباري، القاهرة، المطبعة البهية المصرية، 1354 هـ 61/9.

(4) أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1357/1938، 194/4.

(5) كان ذلك بداية من سنة (27/647) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، بيروت، 1964، ط7، ص 37.

(6) الأمر الذي أدى إلى إعادة الفتح مرارا متكررة سنوات 34/654، 40/660، 50/670، ولمزيد الإطلاع على أخبار الفتح، انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص 227، ابن عذاري، البيان المغرب، 1/4 ـ 8. ابن الأثير، الكامل، 3/34 ـ 35، ابن خلدون، تاريخ، 2/129.

(7) المالكي، رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1951، 77/1.

(8) ن. م، 78/1 ـ 79.

(9) ن. م، 80/1.

تستمدّ من مصدرين رئيسيين هما: القرآن والسنة، وقد كان الطلبة يتلقون عنهم القراءات والتفسير، وعلوم القرآن، وكل ما يتعلق بآيات الأحكام.

والملاحظ أن هؤلاء التابعين قد أخذوا عن كبار الصحابة، الذين اشتهروا خاصة بالتفسير، كابن عباس، ممّا سيدعم مدرسته في التفسير(10) بالقيروان المركز العلمي الجديد، التي أسسها عكرمة في نهاية القرن الأول، وفجر القرن الثاني. وكان مجلس عكرمة في مؤخر جامع القيروان في غربي المنارة، الموضع الذي يسمى بالركيبية(11)، وقد دخل عكرمة القيروان لنشر العلم بها(12)، وهو من أبرز تلاميذ ابن عباس(13) في التفسير وأعلمهم به(14)، وقد حلّ بالقيروان في أواخر أيامه، وهو منتهى نضجه العلمي، فالتفّ حوله كثير من طلبة العلم، وأخذوا عنه ما رواه عن شيخه من تفسير، وبهذا يكون عكرمة واضع أسس مدرسة ابن عباس في التفسير، المعتمدة على الأثر واللغة، ممّا سيؤثر على اتجاه التفسير بالمغرب كله، وهو ما سيتضح من دراسة أعلام التفسير بإفريقية، كابن سلام، والمهدوي، ومكي بن أبي طالب...

ولعل أقدم نص يشير إلى تعليم القرآن بالقيروان، ما رواه غياث بن أبي شبيب قال: «كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ، يمرّ بنا،

---

(10) وقد أشار ابن تيمية (ت 728/1328) إلى أهمية هذه المدرسة بقوله: «وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس» (فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمان بن القاسم، الرباط، مكتبة المعارف، د. ت، 13/347).

(11) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق محمد بن أبي شنب، المدرسة الثعالبية، الجزائر، 1332/1914، المالكي؛ رياض، 1/92.

(12) المالكي، المصدر السابق.

(13) ذكر ابن سعد أن ابن عباس كان يضع في رجل عكرمة قيدا ولا يفكّه منه حتى يتمّ أخذ تفسيره. (الطبقات الكبرى، ليدن مطبعة بريل، 1322 هـ 1339 هـ ج 2، ق2، ص 133)، السيوطي، الإتقان، 2/182، كما أورد حسين الذهبي شهادات الموثقين له في الحديث وفي بيان مكانته في التفسير، ذكر رأي الشعبي فيه قال: «ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة» وقال يحيى بن أيوب المصري «سألني ابن جريج ـ وهو أول من صنف في التفسير مفردا ـ هل كتبتم عن عكرمة؟ فقلت: لا، قال: فاتكم ثلثا العلم. (التفسير والمفسرون، 1/110 ـ 111). فهذه الشهادات تثبت مكانة عكرمة في التفسير، ولا عجب فإن ملازمة طلبة القيروان له، وتحلقهم حوله لنقل مروياته عن ابن عباس كان له الأثر في تطور التفسير بإفريقية، واعتماد المؤلفين فيه على هذه المدرسة خاصة.

(14) المالكي، الرياض، 1/92.

ونحن غلمة بالقيروان، فيسلم علينا بـالكتّاب»(15)، وكان وجود سفيـان بالقيروان بين سنوات (60/679) و(78/797)(16).

ويستفاد من هذا الخبر، وممّـا تقدم من أعمال العلماء الذين استقـرّوا بالقيروان، أن تعليم القرآن قد شاع بها بعد تـأسيسهـا وتعميرهـا، وأن بعض الكتاتيب قد بـرزت في الأحيـاء الـرئيسيـة منهـا، كـما كثـرت المساجد (17)، واهتمّ العلماء برواية الحديث والتفسير، وخاصة مـا يتعلق منها بآيات الأحكام.

وتدعم هذا العمل ببعثة الفقهاء العشرة، الذين أرسل بهم عمر بن عبـد العزيز (ت 101/719) سنة (99/717) على الأشهر لتفقيـه(18) أهل إفريقية، وقد ضمّـت هذه البعثة جلّـة من علماء التـابعين(19) الذين كان لهم دور حاسم في نشر العلوم الإسلامية، وخاصة ما يتعلق منها بأحكام القرآن، وتفسيره، ورواية الحديث.

وقد تمّ على أيدي هؤلاء إسلام البربر، ونشر تعاليم الإسلام في شتّـى أنحاء المغرب الإسلامي.

ولعل المهمة الأساسية للبعثة التعليميـة، تتضـح من خـلال رسـالتهم التي كتبوها لحنظلة بن صفوان(20) (ت 130/748)، ليبعث بها إلى أهالي طنجة لـمّـا ثـاروا عليـه، والتي تتضمن أبـرز مـواضيـع القـرآن، حيث أشاروا إلى أن آياته لا تخرج عن مواضيع أساسية عشرة: أمر بالمعروف،

---

(15) الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تـونس، المطبعـة العـربيـة، 1320 هـ 1/151، المالكي، المصدر السابق، 1/59.

(16) الدباغ، المصدر السابق، 1/151.

(17) وصف حسن حسني عبد الوهاب انتشار الكتاتيب وتطوّر التعليم بإفريقية وسائر أنحاء المغرب بقوله: «ومع الزمان تدرّجت الدراسة في الكتاتيب إلى المساجد والجـوامـع، وحلّق الطلبـة على الشيـوخ من حفاظ القرآن وقرائه، ورواة الحديث، وحملة الفقه وما إلى ذلك، فشاعت منذ ذلك الوقت طريقة التعليم على غرار ما كان موجودا بأمصار المشرق العربي) (ورقات، 1/79 ـ 80).

(18) يطلق لفظ فقيه على كل عالم خاصة في عهد الرسول ﷺ والصحابة بعده، فقد روي عن الرسول ﷺ قوله: «نضّـر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها ثم أدّاها إلى من لم يسمعها، فربّ حامل فقه لا فقـه لـه». (ابن عبد البر، جامع بيان العلم، 1/41)، كما روي عنه ﷺ قوله: «إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الـدين» (جامع بيان العلم، 1/20).

(19) انظر عن أسماء أعضاء هذه البعثة: أبو العرب، طبقات. ص 20 ـ 21، المالكي، رياض، 1/64 ـ 76 ـ الدباغ، معالم الإيمان، 1/180 ـ 223.

(20) حنظلة بن صفوان، ولاّه هشام بن عبد الملك على إفـريقيـة والمغـرب سنـة 124/742. (تاريخ إفريقية والمغرب؛ الرقيق القيرواني، ص 115).

وزجر عن المنكر، وتبشير بالجنة، وإنذار بالنار، وإخبار عن الأولين والآخرين، ومحكم القرآن يعمل به، ومتشابهه يؤمن به، وحلاله أمر أن يؤتى، وحرامه أمر أن يتجنب، وفيه أمثال ومواعظ فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة، فقد استبشر بالمبشرة، وأنذرته المنذرة، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام، ويردّ العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونيّة صالحة، فقد أفلح، وأنجح، وحيا حياة الدنيا والآخرة(21).

فهذه الرسالة في إيجازها وبلاغة ألفاظها، تضمنت خلاصة عن مواضيع القرآن التي سبق ذكرها، وهي تدلّ على أن مهمة هؤلاء في الدرجة الأولى كانت تعليم القرآن وتفسيره وبيان أهدافه، كما أنها تبيّن اتجاه التفسير في تلك المرحلة والمتمثل في العمل بالمحكم، والإيمان بالمتشابه، وردّ ما اختلف فيه الناس إلى الله تعالى، مع طاعة واضحة وهي في جملتها تتعلق بالعقيدة، وبسلوك الإنسان في المجتمع الجديد.

وقد تخرّج على هؤلاء العلماء الجيل الأول من أبناء إفريقية، الذين سيتولّون مواصلة مهمتهم التعليمية الدينية، والذين سيرتحل بعضهم إلى المشرق لزيادة التلقّي عن محدثيه وفقهائه. ويأتي في مقدمتهم عبد الرحمان بن زياد بن أنعم (ت 161/777) الذي روى عن جماعة من التابعين بالمشرق، وتوسّع في العلوم الإسلامية. وقد أقام بمكة مدة ودرس بها، وكانت له فيها مجالس مشهورة حتى أقبل عليه سفيان الثوري، وأخذ عنه(22). ثم رجع إلى القيروان، ودرس بها، وقد أثر عنه كتابان رواهما عبد الله بن غانم(23) (ت 190/805).

ومن علماء إفريقية الأوائل أبو عمران اللخمي(24) (ت 163/779) وعبد الله بن فروخ الفارسي(25) (ت 176/792) الذي رحل في طلب العلم إلى المشرق، ولقي مالكا (ت 179/795) وسفيان الثوري، وكانت له

---

(21) المالكي، المصدر السابق، 1/67.

(22) المالكي، المصدر السابق، 1/96 ـ 103.

(23) أبو العرب، المصدر السابق، ص 30.

(24) أبو عمران موسى بن علي بن رباح بن قصير اللخمي، انظر ترجمته في: المالكي، المصدر السابق، 1/112 ـ 113.

(25) أبو العرب، المصدر السابق، 34 ـ 37.

مكاتبات مع مالك يسأله عن بعض القضايا، فيجيبه. كما لقي ابن فروخ، عبد الملك بن جريج صاحب أول تصنيف في التفسير على أشهر الروايات. وفي إفريقية أخذ عن ابن فروخ يحيى ابن سلام(26) صاحب أقدم تفسير إفريقي وأقدم تفسير باق إلى اليوم.

وممّن رحل في طلب العلم إلى المشرق من أبناء إفريقية، أسد بن الفرات (ت 214/829) لقي مالكا، وصاحبي أبي حنيفة (ت 150/767) أبا يوسف يعقوب الكوفي (ت 182/798) ومحمد بن الحسن الشيباني (ت 189/805) الذي أقام عنده أسد مدة طويلة، واختصّ بالأخذ عنه في الفقه والتفسير، ذكر المالكي (ت 438/1046) سؤال أسد للشيباني عن تعيين الذبيح قال: «قلت يوما لمحمد بن الحسن: اختلفت الروايات في الذبيح من هو؟ فقال قوم: إسحاق، وقال قوم: إسماعيل، وقال محمد أصح الروايات عندنا أنه إسماعيل لأن الله عزّ وجل يقول في كتابه الكريم: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾(27) فكيف يختبر إبراهيم بذبح إسحاق وقد أعلمه الله أنه سيولد له إسحاق، ويولد لإسحاق يعقوب؟ وإنما الاختبار فيما لم يعرف عاقبته وهو إسماعيل»(28).

ثم رجع أسد إلى إفريقية لتعليم التفسير والفقه على مذهبي أبي حنيفة ومالك. وقد حفظت كتب الطبقات بعض دروسه في التفسير، والتي ظهرت فيها صلابة الرجل وردّه على أهل الأهواء وخاصة في مسألة رؤية الله، وخلق القرآن، ذكر أبو العرب (ت 333/944) قال: «حدث أسد بن الفرات يوما بحديث فيه رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة، وسليمان الفراء في مؤخر المجلس، فتكلّم الفرّاء وأنكر، فسمعه أسد، فقام إليه، وجمع بين طوقه ولحيته، واستقبله بنعله، فضربه ضربا شديدا حتى أدماه»(29).

وتدلّ هذه الحادثة على تشدّد علماء القيروان في العقيدة.

---

(26) ن. م، ص 36.

(27) هود، 71.

(28) المالكي، المصدر السابق، 178/1.

(29) الطبقات، ص 82.

وأورد هذه الحادثة المالكي بتفصيل أوفى عن ابن الحداد (914/302) قال:

«حدثت عن أسد أن أصحابه كانوا يقرأون عليه يوما في (تفسير المسيب بن شريك) إلى أن قرأ القارىء ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(30) وكان سليمان ابن حفص جالسا بين يديه، فقال له: «يا أبا عبد الله: من الانتظار»(31).

وقد ذكر أبو العرب في مسألة خلق القرآن أن داود بن يحيى رأى أسد ابن الفرات «يعرض التفسير، فتلا هذه الآية ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾(32) فقال عند ذلك أسد: ويح لأهل البدع، هلكت هوالكهم، يزعمون أن الله جلّ وعزّ خلق كلاما يقول ذلك الكلام المخلوق ﴿أَنَا اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا﴾(33).

وبهذا كانت دروس التفسير شائعة في حلقات التعليم(34) بإفريقية على أيدي أبنائها الذين أسهموا في نشر العلوم الإسلامية، وأصبحت القيروان عاصمة العلم بالمغرب الإسلامي، يفد عليها الطلبة من الأندلس، والمغربين الأقصى والأوسط.

ويتضح مما تقدم أن التفسير في إفريقية مرّ بثلاث مراحل: مرحلة التلقّي والرواية على أيدي كبار التابعين، ثم الرحلة إلى المشرق للتوسع والاستزادة، ومرحلة الإسهام بتدريس التفاسير المروية عن علماء المشرق. ثم المرحلة الثالثة والأخيرة، وهي الإسهام بالتأليف في التفسير.

اتجاهات التفسير:

ظهرت بتونس أغلب الاتجاهات الكبرى في التفسير، التفسير الأثري،

(30) القيامة، 22 ـ 23.

(31) ذكر المالكي بقية الحادثة فقال: «وكان إلى جانب أسد نعل غليظ، فأخذ أسد بتلابيبه وكان أيدا وأخذ بيده الأخرى نعله وقال: (اي والله يا زنديق لتقولنها أو لأبيضن بها عينيك!) فقال: (نعم، ننظره)» (رياض، 1/182)، وسليمان بن حفص الفراء (ت 269/882) هذا الذي عنفه أسد هو رأس المعتزلة بالقيروان على عهده، وكان يحضر دروسه ليحاول بثّ الفتنة ونشر نحلته المتمثلة في إنكار رؤية الله يوم القيامة، وفي القول بخلق القرآن، (أبو العرب، طبقات، ص 219).

(32) طه، 13 ـ 14.

(33) الطبقات، ص 82.

(34) ذكر حسن حسني عبد الوهاب أن الحلق بجامع عقبة بالقيروان كانت «مكتظّة بالطلبة من سائر أنحاء إفريقية والمغرب والأندلس وحتى من السودان الغربي». (ورقات، 1/107).

واللغوي والفقهي والتفسير بالرأي، وقد احتفظت تونس بأقدم تفسير بالمأثور، وهو تفسير يحيى بن سلام، الذي يمثل الحلقة التي تصل بين أول تصنيف في التفسير على يد عبد الملك بن جريح، وبين أشهر تفسير بالمأثور لمحمد بن جرير الطبري.

فلهذا التفسير أهمية تاريخية بالغة وأهمية علمية كبيرة، إذ به يتضح «تطوّر منهج التفسير عما كان عليه في عهد ابن جريح، إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري. ويتضح لمن كان الطبري مدينا له، بذلك المنهج الأثري النظري الذي درج عليه في تفسيره العظيم»(35).

وتطوّر التفسير بالمأثور في تونس على أيدي المهدوي، ومكي بن أبي طالب، إذ تخلص من الأسانيد المطولة مع الالتزام بنقل الصحيح من الأخبار، وإلى هذا التطوّر الذي لحق ذلك الاتجاه، أشار حاجي خليفة (ت 1067/1657) بقوله: «... ثم انتصبت طبقة إلى تصنيف تفاسير مشحونة بالفوائد محذوفة الأسانيد، مثل أبي إسحاق الزجاج، وأبي علي الفارسي... ومثل مكي بن أبي طالب وأبي العباس المهدوي»(36).

وبالنسبة للاتجاه اللغوي فإن عناية العلماء في تونس بلغة القرآن، وقواعدها، قد ظهرت حتى في مراحل التعليم الأولى، عندما اشترطوا على مؤدبي الكتاتيب تعليم أبنائهم إعراب القرآن، ذكر محمد بن سحنون (ت 256/870)، أن المؤدب «ينبغي أن يعلمهم [الأطفال] إعراب القرآن، وذلك لازم له»(37).

واستمرت العناية في المراحل التعليمية الأخرى حتى أصبح لتونس علماؤها في اللغة والنحو، الذين اشتهروا، وفاقوا أئمة المشرق. ومنهم من اشتهر بالتفسير كأبي عثمان سعيد بن الحداد (ت 302/914) الذي كان يحفظ كتاب سيبويه، وكانت له أوضاع كثيرة من أهمها: كتاب توضيح المشكل في القرآن(38)، وكتاب الاستواء(39)، وهو تفسير لجملة

---

(35) ابن عاشور، التفسير ورجاله، ص 27.

(36) كشف الظنون، 1/431.

(37) آداب المعلمين، تحقيق محمود عبد المولى، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د. ت، ص 82.

(38) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1373/1954. ص 261.

آيات تتعلق بهذه القضية الكلامية.

ومن أشهر علماء اللغة بالقيروان، أبو القاسم إبراهيم بن عثمان بن الوزان (ت 346/956) «يعد إمام الناس في النحو وكبيرهم في اللغة»(40) قيل إنه فاق المبرّد وثعلبا وابن النحاس المصري في هذا المجال، وأخذ الشافعي في تفسيره لقوله عز وجل ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: 3)، وخطأه في فهم معنى الآية، إذ فسّرها بقوله: «ألا يكثر عيالكم»(41) فقال: أخطأ، يقال: عال يعيل، إذا افتقر، وأعال إذا كثر عياله وعال يعول عولا، إذا جار، ومنه قول الله جل ذكره ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾، وعال الشيء يعول عولا إذا زاد، ومنه عالت الفريضة، وعالني الشيء يعولني، إذا أثقلني ومنه قول الخنساء:

ويكفي العشيرة ما عالها

ومن مفسري إفريقية الذين اهتموا بهذا الاتجاه أبو العباس المهدوي، الذي خصص قسما هاما من تفسيريه التفصيل والتحصيل، إلى الناحية الإعرابية واللغوية في القرآن.

وممّن اهتمّ بإعراب القرآن أيضا، مكي بن أبي طالب في كتابه «تفسير مشكل إعراب القرآن» الذي جاء في مقدمته بيان فائدة هذا العلم ـ إعراب القرآن ـ: «بمعرفة حقائق الإعراب تعرف أكثر المعاني، ويتجلى الإشكال، وتظهر الفوائد، ويفهم الخطاب، وتصحّ معرفة حقيقة المراد»(42).

وللصفاقسي كتاب في إعراب القرآن بعنوان (المجيد في إعراب القرآن المجيد)، كما ألّف مكي كتابين في غريب القرآن وهما:

1 ـ تفسير المشكل من غريب القرآن على الإيجاز والاختصار.

2 ـ العمدة في غريب القرآن، وهو مختصر للكتاب الأول. ويمثل هذا النوع من التآليف المرحلة الأولى في التفسير إلى جانب كتب المعاني.

---

(39) ن.م، نفس الصفحة.

(40) ن. م، صفحة 269.

(41) رد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور هذا التفسير مشيرا إلى من قال به من العلماء قال: «ولا يصح أن يراد كونه معنى لعال صريحا، لأنه لا يقال عال بمعنى كثرت عياله، وإنما يقال أعال، وهذا التفسير مأثور عن زيد بن أسلم وقاله الشافعي، وقال به بن الأعرابي من علماء اللغة، وهو تفسير بعيد وكناية خفية» (التحرير والتنوير 4/228).

(42) تحقيق ياسين محمد السواس، دمشق، دار مأمون للتراث، د. ت 1/2.

كما نجد لمكي كتابا آخر اتبع في تأليفه منهجا فريدا وهو بعنوان كتاب شرح، كلا، وبلى ونعم والوقف على كل واحدة منهن في كتاب الله عز وجل. وصف حسن فرحات هذا الكتاب بما نصه «إن هذا النوع من التفسير يعتبر فريدا في بابه ولعل مكيا لم يسبق إليه، إذ لم يتناول المفسرون الأوائل هذا الموضوع بمثل هذا التناول حيث قدم الأصول التي ترجع إليها هذه الكلمات وبين مذاهب النحاة وأهل المعاني في ذلك، ثم نص على اختياره فيها، ثم استعرضها في كل القرآن شارحا ومفسرا...)(43).

والتفسير بالرأي الجائز أو الاتجاه العقلي يمثله إمام المجتهدين وأحد أعلام تونس في القرن الثامن: ابن عرفة الذي يتصدّر هذا الاتجاه بفضل ما أوتي من سعة معرفة، حيث كان يورد أقوال العلماء وأئمة المذاهب والمتكلمين وأهل المنطق من أمثال المازري (ت 536/1141) وابن العربي (ت 543/1148) وعياض (ت 544/1149) والرازي، وابن عبد السلام (ت 749/1349) ويقارن بين آرائهم ويخضعها للتمحيص والتدقيق إلى جانب اعتنائه بمسائل الفقه وأصوله في آيات الأحكام.

أما الاتجاه الفقهي، فيمثّله المهدوي بفضل ما خصّصه في كتابيه التفصيل والتحصيل من عناية بآيات الأحكام والناسخ والمنسوخ، وقد تتبّع فيهما آراء أئمة الفقه، وقارن بينها بموضوعية، دون تعصب لمذهبه الفقهي.

وباختصار فإن ابن سلام والمهدوي ومكي بن أبي طالب، يمثلون اتجاه التفسير بالمأثور، في تونس.

كما يمثل المهدوي الاتجاهين اللغوي والفقهي، لتخصيصه قسمين في تفسيره للغة والأحكام. والصفاقسي بكتابه «المجيد في إعراب القرآن المجيد».

ويمثل سعيد بن الحداد وابن عرفة التفسير بالرأي الجائز. أما التفسير الباطني فإن القيروان قد عرفت في متكلم الشيعة الإسماعيلية وفقيههم، أبي حنيفة النعمان بن محمد بن أحمد بن منصور بن حيون التميمي (ت

(43) مكي بن ابي طالب وتفسير القرآن، ص 216.

973/363) من يمثل هذا النوع من التفسير المبني على التأويل والرأي والهوى.

والملاحظ أن كل هؤلاء المفسرين سوى النعمان، قد اعتمدوا على أدوات التفسير الأساسية، التي اشترطها العلماء في المفسر، وأن إسهامهم في التفسير شمل أكثر من جانب، فابن عرفة مثلا، وقد جعلته من المفسرين بالرأي، هو في الحقيقة يمكن أن يعتبر من المهتمين بالتفسير اللغوي والفقهي، إلى جانب اهتمامه بالعلوم المستحدثة في الثقافة الإسلامية كغيره من المفسرين.

يحيى بن سلام (742/124-815/200)

إن ثقافة المفسر واتجاهاته الفكرية، وما يسود عصره من مذاهب وعلوم ينعكس غالبا على تفسيره.

وهذا أبو زكرياء يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي البصري(44)، القيرواني، صورة عن عصره الثقافي والبيئات المختلفة التي تقلب فيها حيث ولد بالكوفة سنة 124/742، وهي إحدى عواصم العلم في ذلك العهد.

ثم انتقل مع أبيه إلى البصرة، وكانت عاصمة علمية كبيرة أيضا، بفضل وجود العدد الكبير من التابعين وشيوخ العلم بها، في مختلف المذاهب الاعتقادية وعلوم اللغة والنحو... وقد كانت قبلة طلبة العلم من شتى أنحاء البلاد الإسلامية، وفيها نشأ، وتعلّم على أيدي شيوخ كبار كثيرين(45) في مختلف العلوم الدينية، وكان على رأسهم جمع من التابعين(46) كما أخذ عن مالك بن أنس، الذي روى بدوره عنه ثمانية عشر حديثا(47) وعن اللّيث بن

---

(44) ترجم له: أبو العرب، طبقات، ص 37 ـ 39؛ المالكي، رياض النفوس، 1/122 ـ 125؛ الدباغ، معالم الايمان، 1/321 ـ 328؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، 2/373؛ الفاضل ابن عاشور، التفسير ورجاله، ص 23 ـ 28؛

Sammoud, Hammadi, Un exègète oriental en Ifriqiya: Yahia Ibn Sallam, Ibla, pp 227 - 242.

(45) أحصى ابن سلام من أخذ عنهم العلم فبلغ بهم ثلاثمائة وثلاثة وستين عالما. (المالكي، رياض، 1/122).

(46) عددهم أربعة وعشرون تابعيا، وامرأة تحدث عن عائشة رضي الله عنها (المالكي، رياض، 1/122)، (ابن الجزري، غاية النهاية، 2/373)...

(47) المالكي، رياض، 1/122.

سعد، وعبد الله بن لهيعة، وعبد الله بن فروخ(48) والبهلول بن راشد...

واشتهر ابن سلام بقوة الحفظ، حتى أنه يسدّ أذنيه عندما يمرّ بمن يتغنّى، خوف أن يسمعه، فيحفظه(49).

وقد روى أحاديث كثيرة بين ستة آلاف وثمانية آلاف حديث، (50) وفي التفسير روى خاصة عن تلاميذ قتادة (ت 117 ـ 118/ 735 ـ 736) ومنهم: أبو خالد قرة ابن خالد (51) (ت 154/770) والخليل بن مرة الضبعي البصري (ت 160/776)، وعن تلاميذ الحسن البصري (ت 110/729). كالحسن بن دينار وابن الأشهب جعفر بن حيان السعدي (ت 165/781)، وفي الكوفة أخذ عن سفيان الثوري (ت 161/777)، وأبي عبد الرحمان محمد بن مروان السدي (ت 164/763).

وبعد أن تحصل ابن سلام على ثقافة واسعة، على أيدي بعض التابعين وكبار شيوخ العلم، انتقل إلى القيروان وهو في كمال النضج العلمي، وقوة العطاء، ممّا أهّله لأن يتصدّر للتدريس، ويؤلف كتابه في التفسير بها.

وقد وصلنا تفسير ابن سلام من طريقين: الأول من طريق ابنه محمد(52) (ت 262/875) الذي كانت له عناية كاملة بالحديث ومعرفة برجاله)(53)، والثاني من طريق أبي داود أحمد بن موسى بن جرير الأزدي العطار(54) (ت 274/887)، الذي اشتهر بطلب العلم منذ صغر سنه. وقد عمّر، وعن طريقه انتشر تفسير ابن سلام بالأندلس وبالمشرق.

وشخصية ابن سلام، من خلال تفسيره، تبرز مذهبه العقائدي المتمثّل في اتّباع السلف الصالح، والابتعاد عن التأويل، والردّ على المتبدعة وأصحاب الضلالات، وهو ما يبرئه من تلك التهمة ـ تهمة الإرجاء ـ التي رماه بها خصومه، وقد دافع عن نفسه بلسان صادق وحجة بالغة، لما سأله أحدهم: يا أبا زكرياء، إنهم يقولون إنك تقول بالإرجاء؟

---

(48) ابن سلام، التفسير، قطعة القيروان، رقم 254، ورقة 578.

(49) أبو العرب، طبقات، ص 37.

(50) المالكي، المصدر السابق، 1/123.

(51) ابن سلام، المصدر السابق، مخ حسن حسني عبد الوهاب، رقم 18653، ورقة 10.

(52) انظر قطعتين من تفسير ابن سلام برواية محمد بن يحيى، رقم 249 ورقم 167. مح القيروان.

(53) الدباغ، المصدر السابق، 2/145.

(54) روى قطعة التفسير: العبدلية 7447، قطع، القيروان، رقم 250، 260...

فضرب ابن سلام بيده «على جدار القبلة، فقال: لا وربّ هذه القبلة ما عبدت الله على شيء من الإرجاء قط. كيف وقد حدثتكم أنه بدعة»(55).

وقد شهد العلماء ببراءته من الإرجاء(56)، وبثقته في رواية الحديث(57) وعلمه وفضله، وبكونه صاحب سنة(58).

والملاحظ أن الناس وأهل العلم خاصة، كانوا حريصين على تعرّف المذهب العقائدي للشيوخ، في ذلك العصر، لما شاع فيه من بدع، فكم رمي علماء أجلاء بتهم خطيرة، كهذه، للتقليل من إشعاعهم، وأحيانا لتوريطهم وهلاكهم. على أن علماء السنة ممّن تخصصوا، فيما بعد، من الرجال جرحا وتعديلا، أسهموا بمجهود عظيم لإعطاء كل ذي حق حقه من العلم والثقة. ولذا كانت عبارات: ثبت، ثقة، حافظ، صدوق(59)، كثيرا ما تأخذ مكانها في وصف من يستحقها من الرواة والمحدثين...

تفسير ابن سلام:

إن التفسير(60) المروي عن ابن سلام يعتبر أقدم تفسير بالمأثور موجود إلى اليوم، حيث لم يصل إلينا ما ألّف من تفاسير قبله. ولهذا فهو يمثل مرحلة هامة في التفسير واقعة بين المرحلة الأولى، التي هي انفصال العلوم الإسلامية عن الحديث وإفرادها بالتأليف، وهي مفقودة، وبين مرحلة أخرى تبدأ من ابن جرير الطبري، وتتواصل مع غيره من المفسرين بالمأثور كالمهدوي وابن كثير والسيوطي...

وقد ألّف هذا التفسير بالقيروان وسمع بها(61)، ثم انتقل بطريق الرواية إلى الأندلس، حيث انتشر، وتلقاه الشيوخ والطلبة وأقبلوا عليه، واهتّم بتلخيصه عالمان أندلسيان هما: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين

---

(55) أبو العرب، طبقات، ص 37.

(56) ن.م، ص 38.

(57) ن.م، ص 37.

(58) ابن الجزري، غاية النهاية، 2/373.

(59) ابن أبي حاتم، كتاب الجرح والتعديل، حيدر اباد، طبعة دائرة المعارف العثمانية. 1373/1953، 2/4 ص 155.

(60) ليس للتفسير عنوان، ذلك أنه دوّن عن طريق الرواية من قبل تلاميذ ابن سلام، وهو في هذا يشبه التفسير المروي عن ابن عرفة.

(61) ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، القاهرة 1373/1954، 1/357.

(ت 339/1008)، وتلخيصه قد وصلنا(62). وجاء في مقدمته، بيان الهدف من تأليف هذا المختصر، ووصف لتفسير ابن سلام قال: «فأما بعد فإني قرأت كتاب يحيى بن سلام في تفسير القرآن فوجدت تكرارا كثيرا، وأحاديث ذكرها يقوم علم التفسير دونها، فطال بذلك الكتاب، وإنما للذي خيرته، من قلة نشاط أكثر الطالبين للعلوم في زماننا، إلاّ إلى ما يخلق على الدارس، ويقرب المفيد، نظرت فيه، فاختصرت في هذا الكتاب، مكرره وبعض أحاديثه، وزدت ما فيه من غير كتاب يحيى، ما لم يفسره يحيى، وأتبعت ذلك إعرابا كثيرا ولغة على ما نقل عن النحويين وأصحاب اللغة السالكين لمناهج الفقهاء في التأويل، زائدا على الذي ذكره يحيى من ذلك...»(63) وقد فرق بين ما هو مروي عن ابن سلام بقوله: قال يحيى وبين ما هو من تفسيره وزياداته بقوله: قال محمد.

وعبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الأنصاري، أبو المطرف القنازعي، من رجال الحديث والتفسير، من أهل قرطبة (ت 413/1022)(64). وهو ممن قرأ بالقيروان، وأخذ عن علمائها نذكر منهم ابن أبي زيد القيرواني وغيره(65).

ولتلخيص ابن أبي زمنين أهمية كبيرة إذ يساعد على تلافي ما لحق تفسير ابن سلام من نقص، إذ الموجود منه، في مختلف قطعه، يقارب ثلثيه حسبما اطّلعت عليه ،كما ظهر أخيرا تلخيص آخر لتفسير ابن سلام. وهو بعنوان «تفسير كتاب الله العزيز.» للشيخ هود بن محكّم الهوّاري(66) من علماء القرن الثالث الهجري(67) وقد أكد محقق هذا التفسير في مقدمته اعتماد المؤلف الكلي على تفسير ابن سلام حيث جاء فيه مانصه «واليوم وبعد أكثر من عشر سنوات من التحقيق والمقارنة والاستقراء، أستطيع أن أقول بدون تردد إن الشيخ هودا الهواري اعتمد اعتمادا كثيرا إن لم أقل اعتمادا كليا على

---

(62) توجد منه نسخة بالمغرب، مكتبة القرويين بفاس، مخطوط رقم 34، ونسخة اخرى بالمتحف البريطاني، لندن، رقم 820، اضافات.

(63) تلخيص تفسير ابن سلام. المقدمة ،ورقة 2

(64) السيوطي، طبقات المفسرين، ص 65

(65) ابن بشكوال، الصلة، 316.

(66) تحقيق بلحاج بن سعيد شريفي، بيروت، دار الغرب الاسلامي، ط 1، 1990 المقدمة، 1/24.

(67) لاتعرف سنة وفاة هود بالتحديد وحسب رأي المحقق فهي حوالي سنة 280، اعتمادا على أن كل من ذكره من المؤرخين يؤكد أنه من علماء الطبقة السادسة (250 ـ 300). (المقدمة 1/17 ـ 18).

تفسير ابن سلام البصري، ولو جاز لي أن أضع للكتاب عنوانا غير الذي وجدته في المخطوطات لكان العنوان هكذا: تفسير الشيخ هود الهواري (مختصر تفسير ابن سلام البصري)(68).

والمتبقي من التفسير اليوم موزع بين تونس والقيروان. ففي تونس قطعة العبدلية ورقمها 7447، بالمكتبة الوطنية، وتضمّ هذه القطعة ستة أجزاء متتابعة من الثالث عشر إلى الثامن عشر، وقد حدّد في نهاية هذا الجزء تاريخ نسخها، وذلك يوم السبت، مستهل محرم سنة 383. وتبدأ القطعة من سورة النحل من قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (آية، 48) وتنتهي بآخر سورة فاطر وجاء في بداية هذه القطعة اسم راويها وهو سعيد المري ثم الأيسري(69).

وقطعة مكتبة حسن حسني عبد الوهاب، الملحقة بالمكتبة الوطنية بتونس ورقمها 18653 وهي تبدأ من سورة الشعراء، وتنتهي بخاتمة سورة الصافات، ولعله يمثل الجزء الذي أشار إليه شيخنا محمد الفاضل ابن عاشور بقوله: «ويوجد جزء آخر لعله يتّمم بعض نقص النسخة، هو من المقتنيات الخاصة لبعض العلماء الأفاضل»(70) وكان هذا قبل وفاة حسن حسني عبد الوهاب، وإهدائه مكتبته للمكتبة الوطنية بتونس، ولكن بالاطلاع عليه ثبت أنه لا يتمّم نقص نسخ الكتاب المعروفة إذ لم يضف إليها إلاّ شيئا يسيرا ــ سورتي يس والصافات ـ

وقطع القيروان محفوظة في مكتبة جامع عقبة بن نافع بالقيروان. قجر، محفظة 27، الملفات؛ 1، 2، 3، 4، 5، ومنها نسخة مصورة على الميكروفيلم محفوظة (71) بالمعهد القومي للآثار بتونس من رقم 333 إلى 809.

وذكر حسن حسني عبد الوهاب أن لمحمد بن يحيى بن سلام (ت 262/876) زيادات على تفسير أبيه يحيى توجد منها أجزاء متفرقة مكتوبة على الرق محفوظة بمكتبة جامع عقبة، وعليها سماعات كثيرة يرجع تاريخها إلى عصر المؤلف.»(72).

---

(68) المقدمة، 1/24.

(69) التفسير، ورقة 91.

(70) التفسير ورجاله، ص 28

(71) كتاب العمر، بيت الحكمة، تونس، 1990. 1/101

(72) ن.م، 1/106

وبتجميع هذا التفسير وتحقيقه تحقيقا علميا وفهرسته فهرسة دقيقة شاملة سيتمكن الدارسون من تعرف أقدم صورة عن الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور، وبذلك يمكن تتّبع التطوّر الذي لحق هذا الاتجاه الهام في التفسير.

وقد اهتم العلماء بهذا التفسير ونوّهوا به مشرقا ومغربا. وصف ابن الجزري هذا التفسير بقوله: «وسمع الناس بها ـ القيروان ـ كتابه في تفسير القرآن، وليس لأحد من المتقدمين مثله(73)، واعتمد أبو عثمان سعيد بن الحداد القيرواني في كتاب الاستواء(74)، كما اعتمده الطبري في تفسيره(75) وأبو العباس المهدوي (76) ومكي بن أبي طالب (77)، وعبد الحق بن عطية(78) (ت 542/1147). وعبد الرحمان السهيلي في كتابه التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام(79) والقرطبي، التفسير، انظر، 5/266، 376، والسيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن)»(80).

هذا وإلى جانب التفسير ترك ابن سلام مؤلفات أخرى في الحديث والفقه من هذه المؤلفات.

1) كتاب الجامع في الحديث، وهو مجموعة كبيرة من مرويات يحيى بن سلام للحديث والسنن مبوبة على أبواب الفقه، على نمط (الموطأ) يوجد من هذا الكتاب نسخة مكتوبة على الرق محفوظة بمكتبة عقبة بالقيروان، ويرجع تاريخ نسخه الى القرن الثالث الهجري(81).

2) كتاب الأشربة توجد منه بعض أوراق على الرق محفوظة بمكتبة عقبة بالقيروان وهي بخط أبي العرب، يقول في الورقة الأولى من الكتاب (حدثني

---

(73) غاية النهاية 2/373.

(74) مخطوط المكتبة العتيقة بالقيروان بدون ترقيم، ورقة 14،6.

(75) جامع البيان، 2/250، 4/100 (ط 2، 1373/1954).

(76) التحصيل، 3/101،130

(77) الهداية إلى بلوغ النهاية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم (ق 814)، 1/158.

(78) انظر هذا الموضوع، صالح باجية، ابن عطية وتفسيره، نسخة مرقونة، بمكتبة جامع الزيتونة، ص 120.

(79) تحقيق عبد الله محمد علي النقراط، طرابلس، لجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، 1401/1992، ص 89.

(80) الإتقان، 1/9

(81) ن.م. 1/102

به يحيى بن محمد بن يحيى بن سلام عن أبيه عن جده) وبهذه الورقة سماعات بخط أبي العرب(82).

منهج ابن سلام في التفسير:

يسير ابن سلام في تفسير القرآن على منهج المحدثين في إيراد الأخبار بسندها أحيانا كقوله: «حدثني أبو الأشهب والمبارك عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ(83) وبإسنادها إلى صاحبها أحيانا أخرى كقوله: وفي تفسير الحسن(84) أو قتادة(85)، أو يذكر عبارة: وهذا موافق لتفسير أبي بن كعب(86) وقد يأتي بروايات مختلفة في تفسير الآية، أو اللّفظة القرآنية، ويتعقبها بالنقد إذا كانت متقاربة المعنى، وليس بينها اختلاف أو تضاد، ويختمها بقوله: وهو واحد(87).

وقد وصف الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور (ت 1390/1970) منهج ابن سلام بقوله: «فبعد أن يورد الأخبار المروية مفتتحا بقوله: قال يحيى، ويجعل مبنى اختياره على المعنى اللغوي، والتخريج الإعرابي، ويتدرج من اختيار المعنى، إلى اختيار القراءة التي تتماشى وإياه، مشيرا إلى اختياراته في القراءة بما يقتضي أن له رواية، أو طريقا لا يبعد أن تكون راجعة إلى قراءة أبي عمرو بن العلاء البصري، لأن يحيى بن سلام بصري النشأة، وإلى طريقه المختار في القراءة يشير في تفسيره بقوله «والذي في مصحفنا»(88).

على أنه في منهجه يعتمد كذلك على إيراد أسباب النزول، وأخبار السيرة وبعض الإسرائيليات، ويتعرض إلى آيات العقيدة، والأحكام وبعض مباحث في علوم القرآن، كنزوله، وفضائله، وفواتح سوره.

وبذلك تكون أركان منهجه متمثلة في العناصر التالية: تفسير القرآن بالقرآن، تفسير القرآن بالحديث، بأسباب النزول، وبالمأثور عن الصحابة

---

(82) ن.م، نفس الصفحة

(83) يحيى بن سلام، التفسير، مخ، رقم: 7447، العبدلية، تونس.

(84) ن.م، ورقة 1 ظ، ورقة 42و.

(85) ن.م، ورقة 91 و، ميكروفيلم، قطعة القيروان، رقم 248، ورقة 657.

(86) ن.م، ورقة 91 و.

(87) ن.م، ورقة 47 ظ.

(88) التفسير ورجاله، ص 27.

والتابعين، كما اهتّم باللغة والقراءات، والروايات الإسرائيلية، وأخبار السيرة، وآيات الأحكام. ومبهمات القرآن.

تفسير القرآن بالقرآن:

عني ابن سلام بتفسير القرآن بالقرآن نفسه، وهو أعلى مراتب التفسير. إذ به يستطيع المفسر الوصول إلى المعنى الصحيح لأن القرآن وحدة متكاملة مترابطة؛ وسأعرض بعض الأمثلة لهذا النوع، وهي تباعا يمثل بعضها آيات فسرت بأخرى دون زيادة، وذلك بإقامة المماثلة بين الآية المفسرة، والأخرى التي تفسرّها، وبعضها يمثل لفظا قرآنيا يشرح بلفظ قرآني، وأحيانا يؤيده بما ورد في مواضع أخرى من القرآن. أو تفسير إشكال في آية بما جاء من أجوبة في مكان آخر من القرآن.

ومن الآيات التي يكتفي ابن سلام في تفسيرها بذكر آية قوله تعالى ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (مريم، 79)، يقول هي كقوله سبحانه(89) ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (النبأ، 30).

وقال في تفسير قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ (الروم، 23)، فهي كقوله(90) عز وجل ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ (القصص: 73)

كما فسرّ قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم، 7) قال: وهو كقوله ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ (هود، 52)، وكقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف، 96).(91).

وقد يعمد إلى تجميع الآيات المتفقة في المعنى، ويتناولها بالشرح لبيان الوحدة الموضوعية في القرآن، ومن أمثلة هذا النوع ما جاء في تفسيره لقوله

---

(89) التفسير، العبدلية، ورقة 24 ظ.

(90) ن.م، ورقة 80 و

(91) ن.م، قطعة القيروان، ميكروفيلم، رقم 248، ورقة 357.

تعالى ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (المؤمنون. 114) قال ابن سلام: «أي إن لبثتم في الدنيا في طول ما أنتم لا بثون في النار، كان قليلا» وهو كقوله ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الاسراء، 52).

ثم واصل تفسير بقية الآية من سورة «المؤمنون» ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بقوله: أي لو كنتم علماء لم تدخلوا النار، والمشركون هم الذين لا يعلمون، وهذا كقوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الروم59)، وأشباه ذلك(92)، ثم بينّ أن المؤمنين عالمون وهم الذين وصفهم الله عز وجل بقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ (القصص، 80) وأشباه ذلك(93).

والملاحظ أن تفسيره القرآن بالقرآن على الطريقة التي نسج عليها قد أغناه عن الوقوع في الجدل المذهبي العقيدي الذي تثيره الآية بين مختلف المذاهب، ونضرب لذلك مثلا هو تفسيره لقوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الرعد، 2) بأنه مثل قوله سبحانه ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(94) (طه، 5) مكتفيا بذلك، واقفا عند هذا الحدّ، متجاهلا الجدل الذي ثار حول الاستواء(95) على العرش بين أصحاب مختلف المذاهب الكلامية الذي جرّهم جرا إلى التأويل والتخريج وحمل الكلام على غير محمله الظاهر.

ويجمع الآيات ذات الموضوع الواحد مفسرا بعضها ببعض ومثاله(96) تفسيره لقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران، 185) فهو كقوله ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ (المؤمنون، 15) وكقوله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمان، 26)، وكقوله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر، 30).

---

(92) ن. م، ورقة 48 ظ

(93) ن.م، نفس الورقة

(94) ن.م، قطعة القيروان، ميكروفيلم، رقم 248، ورقة 656.

(95) الف سعيد بن الحداد القيرواني المتوفى سنة (915/302) كتابا بهذا العنوان تحدث فيه عن معرفة الله وعن استوائه على العرش، وناقش فيه سليمان حفص الفراء (ت 882/269) كبير معتزلة القيروان، وانتهى فيه إلى أن استواء الله على العرش، صفة لذاته تعالى. (انظر: عبد المجيد بن حمدة، ثقافة المجتمع القيرواني أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة تحت الطبع تونس، 1989، ص 184.

(96) ن.م، ح ح عبد الوهاب، ورقة 76.

وهو بذلك قد قام بعمليتي الشرح والجمع استنادا إلى أن القرآن يفسر بعضه بعضا، وأن ما أجمل في موضع قد يأتي بيانه في موضع آخر.

وهكذا يتبّين مما تقدم اعتماد ابن سلام في تفسيره للقرآن على القرآن نفسه مؤكدا على الوحدة الموضوعية بين آياته المتفقة في المعنى والمختلفة في مواضعها من القرآن... منطلقا من تشابهها اللفظي، وترادفها وتلاقيها في المعنى، توضيحا للموضوع الواحد.

وقد تمّ إثبات نماذج مختلفة من تفسير آية بآية ولفظة بأخرى، وتأييد معنى لفظة بما ورد في موضع آخر من القرآن، وتوضيح ما التبس بإضافة شرح وجيز، وهو بذلك قد سار على أسلم منهج في تفسير القرآن.

تفسير القرآن بالحديث:

من مصادر التفسير عند ابن سلام، الحديث، الذي يفسر به الآيات القرآنية، كما يستشهد به على بعض الروايات في التفسير أو المعاني التي يقررها القرآن. وفيما يلي بعض النماذج من التفسير بالحديث الشريف.

فسر قوله تعالى ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ (النمل، 26). بقوله: «لا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه»، ثم نقل حديثا فيه وصف لحملة العرش جاء فيه أنّه ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش رجله في الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنه إلى عاتقه خفقان الطير مسيرة سبع مائة سنة، يقول سبحانك حيث كنت»(97).

وفسرّ قوله عز وجل ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**﴾ (الأحزاب، 72)، فبّين أن الأمانة تعني: الصلاة والصوم والغسل من الجنابة، وقد روى هذا التفسير عن ابن عباس.

ثم أورد بعد ذلك لزيادة توضيح معنى الآية حديثا رواه عن أبي الأشهب والمبارك والحسن بن دينار عن الحسن، قال رسول الله ﷺ: قال الله ثلاث من حفظهنّ فهو عبدي حقا، ومن ضيّعهن، فهو عدوي. ائتمن الله ابن آدم على ثلاثة: الصلاة، ولو شاء قال قد صليت، وعلى الصوم ولو شاء قال: قد

(97) ن.م، العبدلية ورقة 67 ط.

صمت، وعلى الغسل من الجنابة، ولو شاء قال قد اغتسلت. ثم تلا هذه الآية ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (الطارق، 9)(98).

التفسير بالمأثور عن الصحابة والتابعين:

إن المتتبع لتفسير ابن سلام يلاحظ مدى عنايته بإيراد الروايات المختلفة في تفسير الآية القرآنية، وأن أغلب مروياته ترجع إلى: ابن مسعود وابن عباس وابن عمر، وعلي بن أبي طالب ومجاهد وقتادة، والحسن، كما يروي عن الكلبي والسدي خاصة في الروايات الإسرائيلية.

وقد بذل جهدا كبيرا في جمع المأثور عن هؤلاء وتحقيق الأخبار، وأبدى رأيه مرجحا وموضحا، وسأبّين طريقته في النقل عن الصحابة والتابعين في الشواهد التالية:

فسرّ الظلم بالشرك من قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ (الأنعام، 82)، قال: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾: يعني ولم يخلطوا (ايمانهم بظلم) أي بشرك(99). وذكر سنده في التفسير فقال: «الحسن بن حماد عن الحسن: قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية، ففزع منها، فأتى أبيّ بن كعب فقال: يا أبا المنذر: إن في كتاب الله آية أحزنتني. قال: أية آية يا أمير المؤمنين؟ فقال له: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا..﴾ فأينا لم يلبس إيمانه بظلم؟.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنها ليست ما عنيت، ألم تستمع إلى قول العبد الصالح لقمان، إذ قال لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (100)، إنما هو الشرك(101)..

ويؤكد ابن سلام هذا التفسير برواية أخرى عن ابن مسعود وأبي بكر الصديق قال: «عن ابن مسعود إنّ الشرك لظلم عظيم عن أبي بكر الصديق. ولم يلبسوا إيمانهم بظلم قال: الشرك)(102).

---

(98) ن.م، ورقة 92 و. (الحديث أخرجه ابن سلام مرسلا).

(99) ن.م، القيروان، ميكروفيلم 256، ورقة 505.

(100) لقمان، 13

(101) التفسير، القيروان، ميكروفيلم 256، نفس الورقة.

(102) ن.م، ورقة 505 ـ 506.

أسباب النزول:

اعتمد ابن سلام اعتمادا كبيرا على أسباب النزول، كغيره من عامة المفسرين بالمأثور، وقد وجدت عنده أسباب نزول بعض آيات لم أعثر عليها في المصادر المتخصصة في هذا المبحث، وهو مما يجعل من تفسيره مصدرا هاما في هذا المجال.

ومعلوم أن «بيان سبب النزول طريق في فهم معاني القرآن»(103) وله فوائد متعددة(104) من أهمها:

الوقوف على المعنى وإزالة الاشكال فيه.

معرفة الناسخ والمنسوخ.

تخصيص حكم عام.

بيان مبهم...

ومنهج ابن سلام في اعتماده لبيان معاني القرآن بأسباب النزول متنوع، فهو تارة يفسر الآية بالسبب مع ذكر السند في أول الرواية، وتارة يورده في آخر الرواية، وقد يذكر سبب نزول الآية دون إسناد، ويكتفي بقوله (بلغني) أو (حدثني)، وفي بعض الحالات لا يقتصر على إيراد رواية أو اثنين، بل يكثر من الروايات، فيرجح بينها وأحيانا لا يرجح، بل يقتصر على عرضها، وقد لا يكتفي بذكر السبب، بل يفتتح الآية بالتفسير، ثم يضيف إلى تفسيره ما ورد في شأنها من أسباب نزول...

وهذا مثال عن اكتفائه في تفسير الآية بذكر سبب نزولها مع إثبات السند. قال في تفسير قوله عز وجل ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَاهُكُمْ إِلَاهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف، 110): حدثني الفرات عن طاووس أن رجلا قال: يا رسول الله؛ إني رجل أقف المواقف، أريد وجه الله، وأحب أن يرى مكاني، فلم يرد عليه رسول الله شيئا، فنزلت هذه الآية»(105).

---

(103) السيوطي، الاتقان، 1/28.

(104) الواحدي، أسباب النزول، القاهرة، مطبعة الحلبي، 1959/1379، ص 231 ـ 232، الشاطبي الموافقات، القاهرة، المطبعة الرحمانية، د. ت 3/347 ـ 348، الزركشي، البرهان، 1/22 ـ 23. السيوطي، المصدر السابق، 1/22، 28، وسيلة بلعيد، علم أسباب النزول، تونس، دار الجويني للنشر، 1984، ص 25 ـ 36.

(105) التفسير، العبدلية، ورقة 21 و. وانظر أمثلة أخرى في هذا النوع، التفسير العبدلية ورقة 82 ظ.

اللغة في تفسير ابن سلام:

اعتمد ابن سلام اللغة في توجيهه لبعض ألفاظ القرآن كما كان يفاضل بين الآراء ، ويرجح بعضها على بعض أحيانا بما تشهد له اللغة وتؤيده، وكان يحتكم إلى اللغة في مناصرة بعض المذاهب الفقهيه والرد على بعض الفقهاء، وترجيح بعض القراءات أو توجيهها.

وعند تفسيره لبعض الألفاظ القرآنية تفسيرا لغويا يورد المترادف والنظير، أو يشرح اللفظة بتفصيل وبيان، وقد يحتج لها بالقرآن أو الحديث أو الأثر، أو الشعر واستعمالات العرب، قال في شرح معنى (عبرة) من قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ (النحل، 66) أي لآية،(106).

وفسر معنى (معاجزين) من قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ (الحج، 51) بمثبطين، عند مجاهد، ثم أضاف بأنهم هم المثبطون عن الإيمان.(107).

وتعرض ابن سلام إلى بعض الألفاظ الواردة في القرآن، والتي هي من أصل أعجمي، فأرجعها إلى أصولها. مثل لفظة (المشكاة) في قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ (النور، 35)، قال: «المشكاة: الكوة في البيت التي ليست بها نافذة، وهي بلسان الحبشة»(108).

ولفظة (المنسأة) في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ (سبأ، 14) قال: «وهي العصا بالحبشية»(109).

وأشار ابن سلام إلى أن أصل لفظة (استبرق) فارسي في قوله تعالى ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (الكهف، 31) ومعناها الديباج الغليظ، وهو تفسير عكرمة. ثم أضاف قوله: سمعت بعض أهل الكوفة يقول: «هي بالفارسية»: استبره»(110). وهو في هذا يتفق مع ما ذكره أبو عبيدة (ت 209 ـ 213/825 ـ 829) حيث يقول: «وقد يوافق

---

(106) ن.م، العبدلية، ورقة 45 ظ

(107) ن.م، ورقة 42 و

(108) ن.م، العبدلية، ورقة 53 ظ

(109) ن.م، العبدلية، ورقة 93 و.

(110) ن.م، العبدلية، ورقة 17 ظ.

اللفظ اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها، فمن ذلك (الاستبرق) بالعربية، وهو الغليظ من الديباج وهو بالفارسية استبره... وأشباه هذا كثير»(111).

وقال في أصل لفظة (القسطاس) في قوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (الاسراء، 35) بالقسطاس(112): العدل بالرومية(113).

وهكذا فقد اهتم ابن سلام بالتنصيص على الأصل الأعجمي لبعض الألفاظ الواردة في القرآن، وهو بهذا قد اتبع منهج ابن عباس، مخالفا من ذهب إلى عدم وجود ألفاظ ذات أصل أعجمي في القرآن وقد أوضح هذين الرأيين أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 223/838) بقوله: «أما لغات العجم في القرآن فإن الناس اختلفوا فيها، فروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم أنهم قالوا في أحرف كثيرة أنها بلغات العجم»(114).ثم أضاف قوله: «وزعم أهل العربية أن القرآن ليس فيه من كلام العجم شيء لقوله تعالى ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(115) وقوله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(116). ثم انتهى إلى أن كلا الرأيين صواب، إذ أن هذه الألفاظ الأعجمية قد أخضعها العرب إلى أساليب لغتهم تصرفا واستعمالا، فعربت، واختلطت بكلامهم «فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال عجمية فهو صادق»(117).

وأشار إلى هذا الاختلاف عبد الرحمان الثعالبي (ت 876/1472) فبينّ أن أبا عبيدة من القائلين بوجود الألفاظ الأعجمية في القرآن، وأن الطبري من القائلين بعدم وجودها، وأن ما فيه مما وافق اللغات الأعجمية إنّما هو مما اتفقت فيه هذه اللغات: الفارسية والرومية والحبشية مع العربية، فتكلم

---

(111) مجاز القرآن، 1/17 ـ 18، وانظر السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط 3 د.ت، 1/266.

(112) جاء في لسان العرب، القسط، الفعل: جار، وأقسط: عدل، رومية، (7/377).

(113) التفسير، العبدلية، ورقة 9 و.

(114) السيوطي، المزهر، 1/268.

(115) يوسف، 2.

(116) ن.م، نفس الصفحة.

(117) ن.م، 1/269.

أصحابها جميعا بلفظ واحد(118).

وردّ الثعالبي على مذهب الطبري مبيّنا أنه «بعيد، بل إحداهما - [اللغتان] - أصل، والأخرى فرع»(119).

وقد أفرد السيوطي لهذا الموضوع بحثا بعنوان «المهذب فيما وقع في القرآن من المعرّب»، كما عقد له فصلا في كتابه الاتقان(120).

القراءات:

يمثل ابن سلام المرحلة الأولى الأساسية في التفسير، والتي اعتمد أصحابها كبير الاعتماد، على الرواية، ومن ضمنها الروايات المتعلقة بالقراءات، لما لهذه من اتصال بالتفسير خاصة في الناحية الإعرابية، وهي التي يؤدي الاختلاف فيها إلى الاختلاف في المعنى، ومن هنا كان رجحان قراءة على أخرى يؤدي إلى ترجيح ما تفيده من حيث المعنى. كما أن رجحان معنى على آخر يؤدي إلى اعتماد القراءة التي تفيده، فهناك تأثر وتأثير بين القراءات - وهي مرتبطة بالإعراب - وبين المعاني المستفادة منها.

وجاءت القراءات عن طريق الرواية والسماع من أفواه الصحابة الذين تلقوها، هم بدورهم، عن الرسول (ﷺ).

والملاحظ أن القراءات برزت في كتب التفسير بداية من القرن الثاني، قرن انفصال العلوم عن الحديث، والافراد في التأليف، ولذا يمكن اعتبار تفسير ابن سلام مصدرا من المصادر الأولى في القراءات.

وتعرض ابن سلام في تفسيره إلى الاختلاف في القراءات وهو الذي يرجع إلى اختلاف ما نقل من سماع في اللّفظ من حيث المدّ أو عدمه، أو تعويض حرف بغيره، وهو ما يرجع إلى الإعجام، وأغلبه مما يعود إلى اختلاف طرق النطق: «بحسب اختلاف اللهجات، وقد حصر العلماء اختلاف القراء في سبعة أوجه:

الأول: الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركات بقائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها.

---

(118) **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، الجزائر، 1323/1905، 16/1.

(119) ن.م، 17/1.

(120) «النوع الثامن والثلاثون فيما وقع فيه بغير لغة العرب»، 135/1.

الثاني: الاختلاف في إعراب الكلمة في حركات بما يغيّر معناها، ولا يزيلها عن صورتها في الخط.

الثالث: الاختلاف في تبديل حروف الكلمة، دون إعرابها بما يغيرّ معناها ولا يغير صورة الخط بها في رأي العين.

الرابع: الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة، ولا يغير معناها.

الخامس: الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها في الخط، ويزيل معناها.

السادس: الاختلاف بالتقديم والتأخير.

السابع: الاختلاف بالزيادة والنقص في الحرو ف والكلم.(121).

وقد أشار مكي بن أبي طالب إلى أن الاختلاف في القراءة «قد تعارف بين الصحابة على عهد النبي، ﷺ، فلم يكن ينكر أحد ذلك على أحد، لمشاهدتهم من أباح ذلك، وهو النبي، لما انتهى ذلك الاختلاف إلى من لم يعاين صاحب الشرع ولا علم بما أباح من ذلك، أنكر كل قوم على الآخرين قراءتهم واشتدّ الخصام بينهم»(122). ومهّد هذا لظهور التأليف في القراءات وبيان ما هو صحيح وجائز، وما هو شاذ وغير معتمد.

والقراءات في تفسير ابن سلام تأخذ حيزا هاما منه، وتعتبر عنصرا أساسيا من عناصر تفسيره... فغيره في المراحل اللاحقة كمكي بن أبي طالب والمهدوي، قد أفردا هذا العلم بالتأليف، وأصبحا أئمة فيه، وأما هو فقد ارتبط بعصر لم تتطور فيه التآليف، ولهذا امتزج تفسيره بهذا العلم، ومن هنا يلاحظ أنّه لا ينسب القراءات إلى أصحابها، على أنه يشير إلى مقرأ الصحابة وبعض التابعين كمجاهد والضحاك والحسن البصري وقتادة، وإلى بعض شيوخه، وخاصة أبا عمرو بن العلاء البصري (ت 154/ 771).

واستطاع ابن سلام بفضل ما أوتيه من سعة اطلاع وكثرة رواية، أن يكون له اختيار في القراءة(123)، وهناك فرق بين أن يكون للمفسر أو القارىء قراءة وبين أن يكون له اختيار، إذ «القراءة تعني أن يكون للمقرىء قراءة مجردة على حرف واحد من أول القرآن إلى آخره. أما الاختيار فهو أن

---

(121) الزركشي، البرهان، 1/ 334 ـ 336، ابن الجزري، النشر، 1/ 26 ـ 28.

(122) الإبانة عن معاني القراءات، تحقيق عبد الفتاح اسماعيل شلبي، مكتبة نهضة مصر، 1960 ص 27 ـ 28.

(123) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1352/1933، 2/ 373.

يأخذ القارىء من مجموع القراءات التي رواها حروفا يفضلها لسبب يذكره أو لا يذكره»(124) من قراءة أو أخرى إلى آخر القرآن.

وإلى طريقه المختار في القراءة يشير بقوله (في مصحفنا)(125) ومعناه: في مصحف أهل البصرة، وهو بقراءة أبي عمرو بن العلاء البصري. ومن هنا لم يستبعد الشيخ ابن عاشور أن تكون قراءته راجعة إلى قراءة شيخه أبي عمرو بن العلاء(126) ويؤيد هذا الرأي ما جاء في تفسيره لقوله تبارك وتعالى: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ (النحل، 62) قال: «وبعضهم يقرأ هذا الحرف (وَإِنَّهُمْ مُفَرَّطُونَ) يعني أنهم مفرّطون. كقوله تعالى ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾(127)،ثم قال «وكذلك قرأتها عند عمرو(128).

وسأعرض جملة من الأمثلة تبين مدى اهتمام ابن سلام بالقراءات بعضها يبيّن اختلافها باختلاف الإعجام، أو باختلاف الحركة، أو بالتشديد والتخفيف، وبعضها يبرز اختلاف القراءة باختلاف أحرف الكلمة القرآنية، كما أعرض أمثلة من احتجاجه للقراءة بالقرآن... وبخصوص القراءات الشاذة فإنه يعتبرها تفسيرا، خاصة وأنها مما روي عن بعض الصحابة. وقد بين الزركشي أن «أدنى ما يستنبط من هذه الحروف معرفة صحة التأويل، على أنها من العلم الذي لا يعرف العامة فضله، إنّما يعرف ذلك العلماء»(129).

ويرفض القراءة التي لا تتفق والمصحف العثماني ويشير إليها بقوله «كانت تقرأ في الحرف الأول»(130) أو «وكان علي بن أبي طالب يقرأها»(131).

---

(124) أحمد بن أبي عمار الانداري، قراءات القراء المعروفين بروايات الرواة المشهورين، تحقيق أحمد نصيف الجنابي، بغداد، مؤسسة الرسالة، 1405/1985، ص 28 ـ 29.

(125) التفسير، العبدلية، ورقة 49 و.

(126) التفسير ورجاله، ص 27.

(127) الأنعام، 31.

(128) التفسير، العبدلية، ورقة 1 ظ وعمرو، يقصد به أبا عمرو، وقد سقطت لفظة أبي عند النسخ. لأنه لا يوجد قارىء بهذا الاسم سوى أبي عمر بن العلاء.

(129) 134 البرهان، 1/337 ـ 338.

(130) التفسير، العبدلية، ورقة 22 و.

(131) ن.م، ورقة 46 و.

مثال ما اختلف فيه القراء من حيث اختلاف الإعجام، ما ذكره في قراءة قوله تبارك وتعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (النمل، 93)، وهي تقرأ على وجهين: على الياء والتاء، فمن قرأها باليـاء، فيقـول: ومـا ربك يـا محمد بغافل عما يعملون) يعني المشركين، ومن قرأها بالتاء (وما ربك بغافل عما تعملون بقوله لهم»(132).

ومن اختلاف القراءة باختلاف الحركات ما ذكره في قراءة قـولـه تعـالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ﴾ (الأنعام، 57)، قال: «وهو خير الفاصلين بالحكم، أي وهو خير القضاة. قال: وهي تقرأ على وجه آخر: يقصّ الحق من قبل القصص»(133).

ومثال آخر للإختلاف في الحركة، ما جاء في قراءة قوله تعـالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَايَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (الكهف، 44) إذ أشار إلى ثلاث قراءات ذكر في مقدمتها قراءة السدي بالفتح وكأنّـه يخالفها، ثم ذكـر وجهين آخرين في قراءتهـا، وفسّـر الآيـة حسب القـراءتين الأخيرتين قـال: «وقال السدي يعني ولاية الدين هي مفتوحة عنده. وهي تقـرأ على وجهين. أحدهما برفع الحق والآخر بجره. فمن قرأها بالرفع يقول: (هنالك الـولايـة الحق لله) فيها تقديم، ومن قرأها بـالجـر يقـول (لله الحقّ) والحق اسم من أسماء الله»(134).

وأمام هذا الاختلاف الواضح في هذه القراءات، لم يختر ابن سلام أحدها، وبهذا يفهم أنّـه يأخذ بهما معا.

وأشار إلى اختلاف التفسير باختلاف القـراءة مثقلـة ومخففـة في قـولـه تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور، 1)، قـال: «وهي تقـرأ على وجهـين: فَـرَضْـنَـاهَـا، وفَرَّضْـنَـاها، على التخفيف والتثقيل»(135) ثم قال: «فرض فيها فرائضه قال قتادة: وحدّ فيها حدوده وسنّ فيها سننه يعني ما فـرض في هـذه السـورة وسنّ فيها. وقال السدي: وفرّضناها: يعني بيّـناها»(136).

(132) التفسير، العبدلية، ورقة 71 و.

(133) ن.م، القيروان، ميكروفيلم، 256، ورقة 496.

(134) ن..م، العبدلية، ورقة 18 و.

(135) ن.م، العبدلية، ورقة 49 و.

(136) ن.م، نفس الورقة.

وفيما يتعلق بالاختلاف في أحرف الكلمة القرآنية بالزيادة أو النقص، أو الاختلاف في الحروف، دون أن يتغيرّ المعنى وهو من الاختلافات الجائزة كما تقدم، فمن شواهده ما ذكره في قراءة قوله سبحانه ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ (الكهف، 86)، قال: «وهي تقرأ على وجهين: حمئة، وحامية»(137) ثم ذكر سنده في القراءة قال: «حدثني المعلى عن محمد بن عبيد الله عن ابن مليكة قال: ما رأي ابن عباس وعمرو بن العاص في (عين حمئة)؟ فقال ابن عباس: حمئة، وقال عمرو: (عين حامية)(138) فجعلا بينهما كعب الأحبار. فقال كعب: نحوها في التوراة تغرب في ماء وطين. كما قال ابن عباس»(138) ثم أشار ابن سلام إلى معنى ما جاء في قول كعب الأحبار فقال: «يعني بالحمأة: الطين المنتن. ومن قرأها حامية، يقول: حارة»(139).

ويشير إلى قراءة ابن عباس بصيغة الماضي ثم يفسر الآية حسب القراءات التي ذكرها لقوله تعالى ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء، 95)، قال: «عن ابن عباس أنّه كان يقرأها (وحرم على قرية أهلكناها)(140) ثم فسّر الآية حسب هذه القراءة قال: «أي وجب على قرية أهلكناها أنّهم لم يكونوا ليؤمنوا»(141). ثم ذكر قراءة العامة قال: «والعامة(142) تقرأ بها (وحرام) وتفسيرها عندهم: حرام عليهم أنهم لا يرجعون، وهي على الوجهين في التفسير إلى التوبة وإلى الدنيا»(143).

---

(137) قرأ نافع وابن كثير والبصريان وحفص بغير ألف بعد الحاء، وهمز الياء، وقرأ الباقون بالألف وفتح الياء من غير همز. (ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، 2/314).

(138) التفسير، العبدلية، ورقة 19 ظ.

(139) ن.م، نفس الورقة؛ نقل هود قراءة هذه الآية وتفسيرها نقلا حرفيا عن ابن سلام (التفسير، 2/475)

(140) ن.م، العبدلية، ورقة 36 ظ.

(141) ن.م، نفس الورقة.

(142) وردت لفظة، العامة، ومقرأ العامة، في تفسير ابن سلام، عرف مكي بن أبي طالب العامة بقوله: «والعامة عندهم: هو ما اتفق عليه أهل المدينة وأهل الكوفة فذلك عندهم حجة قوية توجب الاختيار، وربما جعلوا العامة أعليه أهل الحرمين. وربما جعلوا الاعتبار بما اتفق عليه نافع وعاصم» (الإبانة عن وجوه القراءات، 49 ـ 50).

(143) التفسير، العبدلية، ورقة 36 ظ.

ومن أمثلة الاختلاف في القراءة باختلاف الحروف ما جاء في قراءة قوله عز وجل ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (مريم، 8) قال: «وهي في قراءة عبد الله بن مسعود وقد بلغت من الكبر عسيًّا»(144)، ثم قال: «وقال بعضهم يبس جلدي على عظمي»(145)، ويفهم من هذه الإضافة أنها تفسير لقوله (عسيًا).

وكان يحتج للقراءة بالقرآن ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قراءة قوله تعالى ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان، 33)، قال: «وهي تقرأ على وجهين (الغَرور) و (الغُرور)، فمن قرأها: الغَرور فيقول الشيطان ومن قرأها: الغُرور يقول: غُرُورُ الدنيا كقوله ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾» (146) (آل عمران، 185).

ومن شواهد هذا النوع أيضا ما جاء في قراءة قوله عز وجل ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ (الإسراء، 16)، قال يحيى: «وكان ابن عباس يقرأها أمّرنا مثقلة من قبل الامارة، كقوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ (147). وكان الحسن يقرأها أمرنا: أي أمرناهم بالإيمان ففسقوا فيها أي أشركوا ولم يؤمنوا»(148).

ويعتبر ابن سلام بعض القراءات التي تخالف المصحف تفسيرا.

قال في قراءة قوله عز وجل ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ (الكهف، 16)، «أي وما يعبدون سوى الله»(149)، ثم قال: «سعيد عن قتادة قال: هي في مصحف عبد الله (وما

(144) ن.م، ورقة 21 ظ.

(145) ن.م، نفس الورقة

(146) ن.م، ورقة 83 ظ.

(147) الانعام، 123.

(148) التفسير، العبدلية، ورقة 8 و.

(149) ن.م، ورقة 15 و

يعبدون من دون الله) وهذا تفسيرها»(150).

ومن هذا النوع ما ذكره في قراءة قوله تعالى ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ (مريم، 26)، قال: «سعيد عن قتادة قال كانت تقرأ في الحرف الأول (صمتا) وبلغني عن أنس بن مالك أنّه كان يقرأها صوما صمتا»(151).

وتشير الصيغة التي استعملها ابن سلام في نقل القراءة الأولى بصيغة الماضي وهي قوله (كانت تقرأ في الحرف الأول) والقراءة الثانية بقوله (بلغني عن أنس)، أنّه لا يأخذ بهما معا ويمكن حمل القراءة الثانية على أنها تفسيرية(152).

وهكذا يتضح من الأمثلة التي تقدمت أن ابن سلام قد أولى القراءات عناية كبيرة لما لها من علاقة وثيقة بالتفسير وفهم معاني القرآن ومقاصده.

الإسرائيليات:

تأثر تفسير القرآن بما روي عن طريق من أسلم من أهل الكتاب وخاصة كعب الأحبار (ت 32/652) وعبد الله بن سلام (ت 43/664)، واختصت المرويات التي اصطلح على تسميتها بالاسرائيليات بجوانب تتعلق ببدء الخليقة والكون، ونهايته، وأخبار الأنبياء والأولين والأمم الغابرة... والتي جاء ذكرها بإيجاز في القرآن إذ لم يهدف إلى حكايتها بالتفصيل، بل غايته استخلاص العبرة من هؤلاء، الذين بعث الله إليهم رسلا، فآمن بعضهم، وكفر البعض، وحاق بالكافرين سوء المصير..

وكان من الطبيعي أن يتعلق بعض المسلمين، بالتطلع إلى تعرف أخبار هذا القصص القرآني الرائع، كقصة أهل الكهف، وإلى تعرف بعض الأعلام والأسماء المبهمة التي لم تكن مقصودة في القرآن لذاتها، كما سبق ذكره، ومن هنا التفتوا إلى أهل الكتاب من المسلمين، وكانوا يعرفون شيئا عنها،

---

(150) ن.م، نفس الورقة

(151) ن.م ورقة 22 و

(152) وانظر أمثلة أخرى من هذه الاختلافات في القراءات، في التفسير، قطعة العبدلية، ورقة 2 ظ ـ 3 و، ورقة 46 و، ورقة 66 ظ...

فأخذوه عنهم... وإن كان الصحابة والتابعون وعلماء الإسلام قديما(153) وحديثا(154) قد وقفوا لهذه الأخبار بالمرصاد وانتقدوها، ورأوا فيها خروجا عن المنهج الإسلامي، خاصة وقد جاءت فيها غرائب، روي عن كعب في تفسير قوله سبحانه ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (التين، 1)، أن التين: هو جبل دمشق، والزيتون هو جبل بيت المقدس(155)، وقد اعتبر ابن خلدون الأخبار الاسرائيلية التي داخلت التفاسير من قبيل الأوهام وذكر شيئا من ذلك(156).

على أن الجدير بالملاحظة، في هذا المجال، أن هذه الأخبار التي تلقاها الرواة الأوائل، وضمتها كتب التفسير، وخاصة تلك التي سلكت منهج التفسير بالمأثور، لم يكن لها تأثير في أصول الدين وعقائده(157) وإنما هي أخبار احتملت الصدق والكذب، ورويت مفصلة لما أجمل من قصص القرآن، أو بعض ما أبهم فيه.

على أن ابن سلام، وقد كان من المفسرين الأوائل، الذين كان همهم، جمع الروايات واستقراءها، ومحاولة الإحاطة بكل ما قيل حول معنى اللفظة القرآنية أو الآية، اجتمع لديه كغيره من المفسرين شيء من ذلك، وتضمنه تفسيره. وقد استمر الأمر بعده مع الطبري والقرطبي وابن كثير (ت 774/1372)، مع شيء من التحري والحذر.

نقل ابن سلام في تفسير قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام، 20)، قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام، إن الله أنزل على نبيّه وهو بمكة أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. فكيف هذه المعرفة يا ابن سلام؟ قال: يعرفون نبي الله بالنعت الذي نعته الله به إذا رأيناه فيكم، كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه مع الغلمان، والذي يحلف به عبد الله بن سلام، لأنا بمحمد أشدّ معرفة مني لابني.

---

(153) قال ابن تيمية: «لا فائدة تعود منه ـ علم الاسرائيليات ـ على المكلفين في دنياهم ودينهم» (مقدمة في أصول التفسير، بيروت، مكتبة الحياة للطباعة والنشر، 1980، ص 43).

(154) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 9/1.

(155) النويري، نهاية الأرب في فنون الادب ، القاهرة، 1963، 326/1.

(156) المقدمة، بيروت، دار الطباعة العربية، ص 20 ـ 21.

(157) الذهبي، التفسير والمفسرون، 169/1.

قال عمر: كيف ذلك؟ فقال: عرفته بما نعته الله لنا في كتابنا، فأشهد أنه هو، وأما ابني فلا أدري ما أحدثت أمه. فقال عمر: وفقك الله، فقد أصبت وصدقت»(158).

كما نقل عن كعب الأحبار في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الكهف، 94).

قال: «عن كعب الأحبار قال: إنّ يأجوج ومأجوج ينقرون كل يوم بمناقرهم في السد، فيُسْرعون فيه، فإذا أمسوا قالوا: نرجع غدا فنفرغ منه، فيصبحون وقد عاد كما كان، فإذا أراد الله تبارك وتعالى خروجهم قذف على ألسن بعضهم الاستثناء، فقالوا: نرجع نرجع غدا إن شاء الله، فنفرغ منه، فيصبحون وهو كما تركوه، فينقرونه فيخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن منهم في حصونهم»(159).

آيات الأحكام:

عني ابن سلام بتفسير آيات الأحكام، وهي الآيات التي تتضمن التشريعات المتعلقة بالعبادة والمعاملات، وقد كانت محلّ اهتمام من قبل الفقهاء والمحدثين والمفسرين، لشدة الحاجة إليها في تنظيم شؤون الفرد والجماعة.

وشاعت العناية بالمسائل الفقهية في مجتمع إفريقية قبل مجيء الفقهاء العشرة ثم قويت على أيامهم، وبعدهم لما انتقل بعض أبنائها للأخذ عن أئمة الفقه بالمشرق.

على أن ابن سلام لا يتعرض إلى اختلافات المذاهب في تفسير آيات الأحكام، وإنما كان اعتماده على آراء السلف وبعض آراء مالك.

ولم يقتصر ابن سلام على عرض هذه الآراء بل كان يرجح بينها، ويعتمد ما يرجحه ويعقّب عليه بقوله (وبه يأخذ يحيى) وكانت له بعض اجتهادات فقهية تدلّ على استقلاله في الرأي يذكرها إثر رأي مالك.

ومن أمثلة هذا المبحث ـ تفسير آيات الأحكام ـ بيانه لقوله عز ذكره ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ (الأحزاب، 28) فقد ربط

(158) التفسير، القيروان، ميكروفيلم، 256، ورقة 488.

(159) ن.م، العبدلية، ورقة 36 ظ

ابن سلام بين مدلول هذه الآية الناطقة بحكم الخيار لزوجات الرسول ﷺ، وبين ما جاء في قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾(الأحزاب، 49)، وروى تفسير علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، «بجعل الخيار، إذا اختارت المرأة نفسها، إذا خيرّها الرجل، تطليقة بائنة)(160) ويعلّل ابن سلام هذا الحكم بقوله «أحسبه قال ذلك من هذه الآية»(161) وهي قوله تعالى﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب، 28) ثم أخذ ابن سلام في بيان عدد الطلقات وتطليق المرأة لنفسها فرأى أن (الخيار في طلاق السنة على الواحدة، ولا ينبغي للرجل أن يطلق ثلاثا ثلاثا جميعا، وأنه إذا قال لها: أمرك بيدك، ففي قول ابن عمر وابن مسعود طلقة واحدة، وهو أحق بها إن اختارته)(162) أي إذا طلّقت نفسها ثلاثا فهي واحدة على هذا الكلام الأول...

ولكن ابن سلام لا يأخذ بهذا الرأي ويورد رأيا لعلي، رضي الله عنه، ويختم هذه المسألة بترجيحه لرأي مالك قال: «وكان علي ورجل معه من أصحاب النبيء ﷺ، يقولون: القول ما قالت، غير أن ابن عمر قال: إلاّ أن يقول إنما ملكتها في واحدة، فيحلف على ذلك، ويكون قضاؤها في واحدة وبه يأخذ يحيى ذكره عن مالك عن نافع عن ابن عمر»(163).

ويلاحظ في هذه المسألة:

1 ـ أن ابن سلام عرض رأي علي بن أبي طالب في خيار المرأة.

2 ـ اختار طلاق السنة وهو طلقة واحدة.

3 ـ ردّ الرأي القائل بأن طلاق المرأة لنفسها ثلاثا، حكمه طلقة واحدة.

4 ـ ردّ رأي علي بن أبي طالب وبعض الصحابة في عدم تقييد الثلاث طلقات وجعلها بائنة.

5 ـ اختار رأي مالك عن ابن عمر الذي قيّد فيه عدد الطلقات بقول الزوج: إنما ملكتها في واحدة، ويحلف على ذلك.

---

(160) التفسير، ح ح عبد الوهاب، ورقة 119.

(161) ن.م، نفس الورقة.

(162) ن.م، نفس الورقة.

(163) ن.م، نفس الورقة.

وهذا يدلّ على تعمق ابن سلام في الفقه واطلاعه على مسائله، وعدم تعصبه لرأي بعينه وإنما كان ينشد الحق، ولا ينظر إلى قائله. والعلماء في هذا العصر، لم يظهر بينهم التعصب المذهبي، وكانوا يعتمدون على القرآن والسنة، في بيان الأحكام.

علوم القرآن:

في تفسير ابن سلام إشارات إلى بعض مواضيع في علوم القرآن، كنزول القرآن، وترتيب آياته وسوره، وبيان المكي والمدني منها، وكالحديث عن فواتح السور وفضائلها، وفضائل بعض الآيات. وهو بهذا يعتبر من أقدم المصادر في علوم القرآن.

بالنسبة إلى موضوع القرآن، فقد أشار إلى أنه قد نزل مرتين: الأولى؛ إلى سماء الدنيا جملة واحدة، وذلك في ليلة القدر. والثانية: نزل على الرسول ﷺ منجما بمقادير مختلفة: ثلاث آيات وأربع آيات وخمس، وأقل من ذلك وأكثر ثم تلا قوله تعالى ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ (الواقعة، 75).

ثم بينّ المدة التي تواصل فيها نزول القرآن بقوله «فرّقه الله فأنزله يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام وكان ذلك في ثلاث وعشرين سنة»(164).

وأوضح ابن سلام أن ترتيب السور والآيات في المصحف، كان بتوقيف من الله على أشهر الأقوال وأصحها.

قال يحيى «وحدثونا أن السور لم تنزل كل سورة منها جملة واحدة إلا اليسير، وكان النبيء ﷺ يبيّن لهم، ويأمرهم كلما نزل من القرآن شيء، أن يضعوه في السور؛ في المكان الذي يأمرهم به.. وكان يأمر أن يجعل في بدء السورة المدني والمكي. كان جبريل يأتي النبيء ﷺ، فيقول: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تجعل آية كذا وكذا، بين كذا وكذا من السورة، وقد أنزل المكي قبل المدني»(165).

وعرّف ابن سلام المكي والمدني من القرآن، بأنّ الأول: ما نزل بمكة، وما نزل في طريق المدينة، قبل أن يصلها الرسول ﷺ.

---

(164) ن.م، العبدلية، ورقة 14 و.

(165) ابن أبي زمنين، المصدر السابق، ورقة 3

والمدني: ما كان بالمدينة، أو ما نزل على رسول الله في أسفاره بعد قدومه إليها واستقراره بها(166).

وفي هذا التعريف، يلاحظ اعتبار ابن سلام للعامل الزمني، وهو الأمر الذي اعتمده أشهر العلماء(167) ومن بينهم السيوطي، حيث فضل تعريف ابن سلام على تعاريف غيره المتمثلة في اعتبار مكان النزول، أو اعتبار المخاطب. وهي النظريات الثلاث المعروفة في التفريق بين المكي والمدني. قال السيوطي: «أخرج عثمان ابن سعيد الرازي بسنده إلى يحيى بن سلام قال: ما نزل بمكة، وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبيء ﷺ المدينة، فهو من المكي، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدني»(168)، وقد أعجب السيوطي بهذا التعريف، وعلق عليه بقوله: «وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحا»(169).

وفي فواتح سور القرآن نقل روايات، وآراء مختلفة حول مدلولاتها، ولم يختر منها رأيا، أو يرجح رواية، وكأنما يفهم من ذلك أنه لا يريد الخوض فيها.

والمعلوم أن فواتح السور قد خاض فيها بعض المفسرين، والرأي الراجح أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه، وأن الخوض فيها لا طائل من ورائه.

نقل بن سلام عن قتادة تفسيره لمطلع سورة «الشعراء» (طسم) قال: هو اسم من أسماء الكتاب ـ القرآن ـ أقسم به الله (170). ونقل رواية عن الحسن مفادها أنّه لا يدري ما تفسير ألم، ألمر، ألمص، وما أشبه ذلك... من حروف المعجم وقد قال إنّ هناك أقواما من المسلمين اعتبروها أسماء السور وفواتحها(171).

مبهمات القرآن:

ومما يتصل بهذا المبحث ـ علوم القرآن ـ روايته لبعض الأخبار المتعلقة

---

(166) ن.م، نفس الورقة.

(167) الزركشي، البرهان 1/187، الزرقاني، مناهل العرفان، 1/193.

(168) الاتقان، 1/9.

(169) ن.م، نفس الصفحة.

(170) ن.م، العبدلية، ورقة 62 ظ

(171) تفسير ابن أبي زمنين، ورقة 4

بتوضيح مبهمات القرآن، وهو معرفة أسماء من نزل فيهم قرآن وقد اهتم العلماء بهذا العلم وألّفوا فيه كتبا(172) ويؤخذ هذا العلم عن طريق النقل والرواية عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين... ذكر في تفسير، الرجل، والمدينة من قوله تعالى ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ (القصص، 20)، أن الرجل هو حبيب النجار، وأن المدينة(173) هي أنطاكية(174).

وهما نفس المبهمين الواردين(175)، في قوله عز وجل ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ (يس، 26).

كما عينّ (مترفيهم) من قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِٱلْعَذَابِ﴾ (المؤمنون، 64)، بأنهم: أبو جهل وأصحابه الذين تم قتلهم يوم بدر(176).

كما ذكر أن نزول هذه الآية كان متقدما على غزوة بدر فهو إخبار بالغيب إذ نزلت قبل ذلك بمكة(177).

وقال في تعيين اسم الفتى والبحرين من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ (الكهف، 60) هو يشوع بن نور، والبحرين: بحر فارس والروم(178).

ويلاحظ مما تقدم نقل ابن سلام لخبر واحد في بيان ما ورد في بعض مبهمات القرآن، غير أنه أحيانا يذكر روايات متعددة في تعيين المبهمات الواردة في الآية دون الفصل برأي، بل يثبت السند والرواية، ثم يذكر غيرها بنفس الطريقة، دون الإشارة إلى اختياره لرواية منها. مثال هذا ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ

---

(172)ن.م،ورقة 175.

(173) السيوطي: مفحمات الأقران في مبهمات القرآن، ص 2.

(174) مدينة تقع على نهر العاصي بسورية اتخذ فيها النصارى لأول مرة اسم المسيحيين بحيث اعتبرت عاصمتهم قبل رومة؛ وانظر عن هذين المبهمين السيوطي مفحمات الأقران، ص 81.

(175) التفسير، القيروان، ميكروفيلم 248، ورقة 657؛ وأنظر عمن هذين المبهمين السيوطي؛ مفحمات الأقران. ص 90 ـ 91.

(176) ن.م، العبدلية، ورقة 47 و.

(177) ن.م، نفس الورقة.

(178) ن.م، ورقة 19 و.

﴿ذَاتِ قَـرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (المؤمنون، 50). قال: «سعيد عن قتادة الربوة: هي بيت المقدس»(179) ثم قال ذكر لنا أن كعبا كان يقول: «هي أدنى الأرض إلى السماء ثمانية عشر ميلا»(180)، ثم نقل خبرا عن مجاهد قال: «بقعة في مكان مرتفع يستقر فيه الماء»(181) ثم أتى برواية أخرى في نفس المعنى عن ابن مجاهد عن أبيه: «الربوة المستوية»(182) ، ثم نقل خبرا آخر في تفسير الربوة، بأنها دمشق قال: «سعيد عن الحسن، الربوة: هي دمشق، وعن سعيد بن المسيب، الربوة: هي دمشق»(183).

وفي عمله هذا دلالة على اهتمامه باستقراء الروايات المختلفة لبيان المبهم في القرآن، ولقد صعب عليه أن يختار منها رواية، أو أن يجمع بينها لأنها في أغلبها تدلّ على أماكن مختلفة: القدس، دمشق، بقعة مرتفعة، ربوة مستوية...

آيات العقيدة:

تناول ابن سلام بعض المباحث في العقيدة كعلم الله تعالى، وتوقف بالخصوص عند مبحث المحكم والمتشابه في القرآن، وحذر من التفسير بالرأي، ومن اتّباع أهل البدع والأهواء ونهى عن الخوض في القدر، كما عني بمبحث الإيمان من حيث ثبوت دخول الجنة للمؤمن الذي نطق بالشهادتين، وثبوت الرحمة له.

وأشار إلى أهمية الأعمال بالنسبة للمسلم خلافا لما شاع عنه من تهمته بالإرجاء(184). وتحدث عن التوبة، وأتى بروايات تصوّر البعث والحساب، وعذاب القبر، وتحدث عن فضل الصحابة رضي الله عنهم.

أشار ابن سلام إلى علم الله الذي وسع كل شيء، وأن كل ذلك عنده

---

(179) ن.م، ورقة 46 و.

(180) ن.م، نفس الورقة

(181) ن.م، نفس الورقة.

(182) ن.م، نفس الورقة.

(183) ن. م، نفس الورقة، وانظر. السيوطي، المصدر السابق، ص 75 وكتاب التعريف والاعلام فيما ابهم في القرآن، ص 220.

(184) نقل أبو العرب في كتاب الطبقات، أن يحيى بن سلام «ضرب بيده على جدار القبلة فقال: لا ريب هذه القبلة ما عبدت الله على شيء من الارجاء قط، كيف وقد حدثتكم أنه بدعة»، ص 37، وانظر عن هذا أيضا، المالكي، رياض النفوس: 1/125.

مسطور في كتاب، عند تفسيره لقوله عز وجل ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل، 75) فبّين أن الله أحصى كل شيء على الإنسان، روى عن ابن عباس قال: «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب قال رب ما أكتب؟ قال: ما هو كائن، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة(185).

ومما يدخل في هذا الموضوع بيانه لقوله تعالى ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام، 38)، حيث أوضح أن الله لم يفرط في الكتاب من شيء، من آجالنا وأعمالنا وأرزاقنا.. فكل ذلك مكتوب عند الله(186).

ففي مبحث الإيمان تعرض ابن سلام إلى أن الشرك بالله يوجب النار، وأنه لا ينجي منها إلاّ الإيمان بالله الواحد الأحد، وذكر جملة أحاديث وآثار، جميعها تفيد أن المشرك في النار، وأن المؤمن حتى لو اكتفى بالنطق بالشهادة، دخل الجنة.

وذلك في تفسير قوله عز وجل ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ (النمل، 90)، أن ذلك يعني الشرك في تفسير قتادة والسدي، وأورد حديثا عن جابر بن عبد الله أن الرسول ﷺ، سئل عن الموجبتين فقال: «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة(187)،ومن مات يشرك بالله دخل النار»(188)، وروى حديثا بنفس المعنى وهو «من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقي الله يشرك به دخل النار»(189)، كما روى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (من قال لا إلاه إلا الله دخل الجنة) (190) وروى أثرا في نفس المعنى عن معاذ بن جبل مفاده أن من نطق بالشهادة دخل الجنة، وأثرا آخر عن الحارث بن نبهان عن حبيب بن الشهيد عن الحسن قال: «لا إلاه إلاّ الله ثمن الجنة»(191).

---

(185) التفسير، العبدلية، ورقة 69 ظ.

(186) ن.م، ميكروفيلم 256، ورقة 492.

(187) رواه مسلم بلفظ آخر، كتاب الايمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا (الحديث الأول).

(188) التفسير، ح ح عبد الوهاب، ورقة 41، العبدلية، ورقة 76 و.

(189) ن.م، نفس الورقة، رواه الشيخان وغيرهما من أصحاب الكتب الصحيحة.

(190) التفسير، ورقة 42.

(191) ن.م، العبدلية، ورقة 76 و.

وبذلك أكد على الايمان بثلاثة معان متقاربة:

الموت على التوحيد، لقاء الله تعالى على التوحيد، النطق بالشهادة.

ويؤكد ابن سلام على أهمية أعمال المؤمنين، وعلى أنها المعيار الذي يحدّد المنزلة التي ينالونها في الجنة، خلافا لما شاع عنه من اكتفاء بالايمان دون العمل.

ذكر في تفسير قوله تعالى ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الأحقاف، 19)، أن «المؤمنين درجات في الجنة على قدر أعمالهم، وللمشركين درجات في النار على قدر أعمالهم»(192).

وكما أكد على أعمال المسلمين وعاقبتها فيما يرجع إلى العقيدة كذلك أكد على حسن التعامل بينهم لما له من أهمية في تنظيم مجتمعهم، وإقامته على التعاون والتكافل ولما لأعمالهم من تبعة على مصيرهم يوم الحساب والجزاء والعقاب، وقد حذرهم جميعا، لما فسر قوله عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان، 20)، بما روى عن الرسول ﷺ قوله: «ويل للمالك من المملوك، وويل للملوك من المالك، وويل للعالم من الجاهل، وويل للجاهل من العالم، وويل للغني من الفقير، وويل للفقير من الغني، وويل للشديد من الضعيف، وويل للضعيف من الشديد.»(193)، ثم واصل ابن سلام الحديث عن أهمية الأعمال، فنقل عن أبي الدرداء قوله «ويل لمن لا يعلم مرة، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل سبع مرات»(194).

ورغم تشدّده وإلحاحه على أداء الفرائض بأحسن الوجوه وحرصه على مراقبة الانسان لأعماله، فإنه يرغّب في التوبة، ويجعلها بابا مفتوحا، لكل مذنب من المؤمنين، وأن من تاب، وحسنت توبته كمن لم يذنب، معتمدًا في ذلك على القرآن وهو قوله عز وجل﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ (البقرة. 222)، فالله إذا أحبّ عبدا لم يضرّه ذنب(195)، وعلى ما روي عن سفيان الثوري من أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له(196).

---

(192)ن.م، ميكروفيلم...، رقم 254، ورقة 565

(193) ن.م العبدلية، ورقة 59 و ـ 59 ظ.

(194) ن.م، نفس الورقة.

(195) ن.م، القيروان، ميكروفيلم، رقم 8، ورقة 402

(196) ن.م، نفس الورقة.

وبهذا يكون ابن سلام سائرا في تفسيره لهذه الآيات على منهج أهل السنة، حيث اجتنبوا الخوض في المسائل العقائدية الشائكة وعملوا على التيسير والتبشير، وفتح باب التوبة أمام المؤمنين.

وفي خاتمة هذا البحث يتضح أن العناية بالقرآن تحفيظا وتفسيرا انطلقت بدخول الفاتحين إلى إفريقية التونسية، وقويت بمجيء بعثة الفقهاء العشرة، الذين أرسل بهم عمر بن عبد العزيز في فجر القرن الثاني للهجرة، ثم ازدادت رسوخا، وخرجت إلى حيز الإضافة تدريسا وتأليفا مع الرعيل الأول من علماء افريقية الذين ظهروا في القرن الثاني للهجرة وخاصة أسد بن الفرات.

ثم برز أول تفسير ألف بالقيروان، في نهاية القرن الثاني، من قبل يحيى بن سلام البصري القيرواني، الذي يعتبر اليوم أقدم التفاسير، ويمثل حلقة التطور الذي عرفه علم التفسير بين مفسرين كبيرين هما ابن جريج المكي وابن جرير الطبري.

واهتم هذا البحث بدراسة منهج ابن سلام، وتوضيح أهم مرتكزاته في تفسير القرآن بالقرآن وبالحديث وقد جاء التفسير على طريقة المحدثين من إيراد أحاديث التفسير مسندة إلى أصحابها ووقع صاحبه فيما وقع فيه أوائل المفسرين من التعرض إلى الإسرائيليات بحثا عما يفيد في بيان بعض ما يتعلق بأخبار الأولين...

وإن لهذا التفسير أهمية علمية وتاريخية بالنظر إلى علم التفسير في عمومه نشأة وتطورا، وبالنظر الى علم التفسير بتونس إذ يعتبر البداية الرائعة لهذا العلم الذي سنرى للتونسيين فيه، إسهاما مجليا وريادة متميزة، يشهد عليها تفسير الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور المنشور اليوم بين الناس، وسيشهد عليها ما تختزنه مكتبات علماء تونس عندما تظهر تفاسيرهم الكاملة أو أجزاء منها، وخاصة ما ألقي في حلقات الدروس، أو ما نشر ببعض المجلات.

وإني لأرجو أن أكون بهذا البحث، قد أوضحت أهمية هذا التفسير، وعرفت بمنهجه وكشفت عن خصائصه بالتحليل والمناقشة، اعتمادا على النصوص المتبقية منه، وهي كثيرة، احتفظت بها تونس دون غيرها من البلاد.

وسيلة بلعيد بن حمدة